مجلة جامعة دمشق للدراسات التاريخية
المجلد 149 (2): 39-66
Damascus university journal of Historical Studies
V 149 (2):39-66

النّظافة في مدينة دمشق بين عامي 1800 – 1918م

نايف الجباعي[1]، أ. د. كاميليا أبو جبل[2]
[1]طالب دكتوراه، جامعة دمشق، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، تاريخ حديث ومعاصر.
naef.aljebae2@damascusuniversity.edu.sy
[2]عضو هيئة تدريسية في جامعة دمشق كلية الآداب والعلوم الإنسانية، تاريخ حديث ومعاصر.
Camiliaaaboujabal63@gmail.com

الملخص:

تعد النظافة إحدى أهم مقومات الوجود البشري، ولا يستطيع سكان المدن الاستمرار في العيش فيها في صحة وسلامة ما لم يحافظوا على نظافتها، وفي موضوع الدراسة "النظافة في مدينة دمشق في العصر العثماني، تساءلنا: من كان يقوم بأعمال النظافة فيها؟ جهة واحدة أم جهات عدّة؟ وما علاقة بعضها ببعضها الآخر؟ ولا بد من دراسة عوامل النظافة في المدينة من توافر المياه والثقافة الاجتماعية ودور السلطة العثمانية، كذلك النظافة في المنازل والأسواق، ودراسة معوقاتها وصعوباتها، وصولًا إلى خدمات النظافة المأجورة التي أصبحت تشير إلى التطوّر الحضاري وتعالج مسألة النظافة من منظور أكثر ضرورة، إذ تحولت النظافة من أمر ثانوي، إلى شيء رئيس يُدفع مقابله المال، ولمعالجة كل ما ذُكر آنفًا عُدنا إلى المصادر التاريخية الاصيلة وأبرزها سجلات المحاكم الشرعية في دمشق وكتب الرحالة في ظل عدم وجود دراسات سابقة عن الموضوع.

الكلمات المفتاحية: عوامل النظافة، خدمات النظافة، مسألة النظافة.

تاريخ الايداع: 2023/6/21
تاريخ النشر: 2024/7/24

حقوق النشر: جامعة دمشق –سورية، يحتفظ المؤلفون بحقوق النشر بموجب CC BY-NC-SA

ISSN (online)
http://journal.damascusuniversity.edu.sy/index.php/index/index

Cleanliness in the city of Damascus between 1800 - 1918 AD

Naef aljebae[1], Dr. Camellia Abu Jabal[2]

[1]PhD student, Damascus University, Faculty of Arts and Humanities, Modern and Contemporary History

[2]Faculty member at Damascus University, Faculty of Arts and Humanities, Modern and Contemporary History

naef.aljebae2@damascusuniversity.edu.sy

Camiliaaaboujabal63@gmail.com

Received: **21/6/2023**
Accepted: **24/7/2024**

Copyright: Damascus University- Syria, The authors retain the copyright under a **CC BY- NC-SA**

Abstract

Cleanliness is one of the most important elements of human existence, and the inhabitants of cities cannot continue to live in health and safety unless they maintain its cleanliness. In the subject of the study, "Cleanliness in the city of Damascus in the Ottoman era," we asked: Who was doing the cleaning work in it? One side or several? It is necessary to study the hygiene factors in the city such as the availability of water, social culture and the role of the Ottoman authority, as well as cleanliness in homes and markets, and study its obstacles and difficulties, leading to the paid cleaning services that have come to refer to civilizational development and address the issue of cleanliness from a perspective more necessary, Cleanliness has changed from a secondary matter to a major thing for which money is paid, and to address all of the aforementioned, we returned to the authentic historical sources, most notably the records of the Sharia courts in Damascus and the books of travelers in the absence of previous studies on the subject.

Keywords: hygiene factors, hygiene services, hygiene issue.

المقدمة:

تشكّل النّظافة أهم عنصر من عناصر وجود أي مدينة تنبض فيها الحياة الاقتصادية، والتجارية، والسكانية، وتعد النظافة إحدى أهم مقومات الوجود البشري، ولا يستطيع سكان المدن الاستمرار في العيش فيها في صحة وسلامة ما لم يحافظوا على نظافتها، وفي مدينة دمشق في العصر العثماني وتحديدًا بين عامي 1800 – 1918م، محور هذه الدراسة، فقد كانت دمشق إحدى أكبر مدن السلطنة العثمانية، وضجّت بها الحركة، وازداد عدد سكانها عن 150 ألف نسمة في نهاية الحكم العثماني، فلا بد من دراسة واقعها من حيث النظافة، وعواملها في المدينة من توافر المياه، والثقافة الاجتماعية، ودور السلطة العثمانية، كذلك النظافة في المنازل والأسواق، ودراسة معوقاتها وصعوباتها، وصولًا إلى خدمات النظافة المأجورة التي أصبحت تشير إلى التطوّر الحضاري، وتعالج الدراسة مسألة النظافة من منظور تاريخي، إذ تحولت النظافة من أمر ثانوي، إلى شيء رئيس يُدفع مقابله المال، فالمدينة هي سوق صناعية أيضًا، وفيها يحطُّ الرحالَ كل يومٍ مئاتُ التجار على دوابهم، وتدخلها آلاف رؤوس الأغنام التي تذبح أو تباع فيها، وفي موسم الحج، تستضيف عشرات الآلاف أسابيعَ طويلة، وبكل تأكيد ترك كل هؤلاء مخلفات لا يستهان بها.

تبرز **إشكالية البحث** في السؤال الرئيس: ما هي وسائل وأساليب الحفاظ على النظافة في مدينة دمشق بين عامي 1800 – 1918م؟ ويتفرّع عن السؤال الرئيس أسئلة فرعية: كيف لمدينة قوام النقل فيها حيوانات الجر، أن تسلم من مخلفاتها؟ ومن كان يقوم بعمليات تنظيف الطرقات، والخانات، ومسالك المياه إلى البيوت، ومنها، لتبقى نظيفة؟

تبرز **أهمية البحث** وفي الإجابة عن الأسئلة السابقة، ودراسة واقع النظافة في المدينة، وتبيان الأثر الذي تركه العثمانيون فيها في مجال النظافة، وكذلك دور سكانها في نظافتها.

هدف البحث: دراسة العوامل والإسهامات البشرية التي جعلت من مدينة دمشق موطنًا مقبولًا للتجمّع البشري، ودراسة نظافة المدينة في بعض الحالات والظروف المُختلفة، واستخلاص النتائج التي تخدم البحث التاريخي في التقصي وأخذ العبر التاريخية.

الدراسات السابقة: لم نجد أية دراسة سابقة حول الموضوع، والدراسات في معظمها عن مجتمع المدينة ومنشآتها، ولم تتطرّق

إلى مسألة النظافة، ومعالجتها تاريخيًّا في مدّة البحث الزمنية المُختارة.

منهج البحث: استخدم في البحث المنهج التاريخي، والوصفي، والتحليلي، وذلك لأنَّ جزءًا من البيانات التاريخية لم تشر إلى النّظافة، بل وصفت مخلفات الناس والحيوانات، وقد احتاج البحث إلى المنهج التحليلي والاستنتاجي؛ لقراءة المعطيات، واستخلاص النتائج المرجوة، أمّا **مصادر البحث** فهي وثائق المحاكم الشرعية غير المنشورة في الدرجة الأولى، تليها مصادر عايشت المرحلة ككتاب القاسمي قاموس الصناعات الدمشقية، وكتاب القساطلي الروضة الغناء في دمشق الفيحاء، فضلًا عن كتب الرحالة العرب والأجانب، وغيرها مما ثبت في قائمة المصادر والمراجع.

الاختصارات المستخدمة في التوثيق: س.ش: سجل محاكم شرعية – س.ت: سجل محكمة تجارية – و: الوثيقة.

أولًا: عومل النّظافة في المدينة، ومقوّماتها:

تهيَّأت لدمشق عوامل طبيعية وبشرية أسهمت في إكسابها صبغة من النّظافة منذ القديم، وهذه العوامل منها:

1- توافر المياه العذبة.

لا يختلف اثنان أنْ دمشق كانت مضرب مثل بكثرة مائها ونقائه(الإيبش وآخرون، 1998، 159)، وتوافرت المياه العذبة في معظم أرجائها، وترافقت بوجود الأشجار، والزهور بكثرةٍ في معظم أرجائها، وهذا جعلها مقصداً تجارياً، وسياحياً، ومُستقراً لسكانها، وللهجرات القادمة إليها(سامي، 1892، 53)، فأصبحت المدينة حوضاً واسعًا مُكتظاً بالسكان (أوليفانت، 2004/1889، 398)، فضلًا عن ذلك فقد نقلت مياه الأنهر إلى آبار ضمن المنازل عن طريق قنوات أرضية منخفضة، ودهاليز تحت الأرض (ملّا، 1998، 71)،(Akkach,2010, 72-73)، وانعكست نظافة المياه في المدينة على صحة خضرواتها وفواكهها، وصحة الأجسام أيضاً (الصيادي، 1330هـ، 52)، وكانت المياه تجري في معظم مواضع المدينة، وتغسل النجاسات(البوسعيدي، 2009، 67)، وقد استمر توافر المياه في المنازل، وفي معظم الأماكن العامّة طوال العصر العثماني(بيسترون، 2009/1928، 207)، وعلى سبيل المثال؛ كانت المياه متوافرة في الجوامع سواء مطالع أو برك(قساطلي، 1982، 106)، وللحفاظ على المياه نظيفة وصولًا إلى

المنازل، عمل القنواتي على إزالة الأوساخ وأوراق الأشجار وتسليك مجاري المياه للمنازل، والشوارع، وترميم الأماكن التي تهدر منها الماء، وبالمقابل يدفع له الأهالي أتعابه(القاسمي وآخرون، ج2، 1988، 364)، وقد حافظت المدينة على مصادر مياهها نقيّة لمدّة زمنية طويلة، ولكن ومع تزايد عدد السكان، وعدم الاستمرار بالعناية بمصادر مياه الشرب أدى إلى تلوثها، وفي نهاية القرن التاسع عشر ضربت الكوليرا دمشق، وهذا جعل الحكومة تبدأ بمشروع الفيجة؛ لتأمين المياه النظيفة للسكان بوساطة قساطل حديثة، وصلت لمعظم منازلها (حسن، 1995، 61).

2- الثقافة المجتمعية والأخلاق الدينية:

أدّى التديّن، وحث الديانات السماوية على النّظافة، ولا سيما الإسلام، دورًا مهمًا في النّظافة؛ إذ كانت الأسواق نظيفة، وكذلك الدكاكين، سوى بعض الدكاكين التي يشغلها الفقراء، حتى إن الباعة تميزوا بنظافتهم، وفي العموم كانت ملابس الدمشقيين نظيفة، وأعطت النّظافة لهم انطباعًا جميلًا أمام الغرباء والزوار الذين اهتموا بموضوع النّظافة، والإشارة إليها(سامي، 1892، 61، 76)، وكان الوضوء هو أحد أهم عوامل النّظافة اليومية(علي، د.ت. 14)، في حين كانت المياه مجانية، وتصل إلى معظم البيوت، وهذا جعل الدمشقيين يعتنون بالنّظافة سواء نظافة ملابسهم أم أجسادهم، أم في بيوتهم (سامي، 1892، 60)، وربما أفضت طبائعهم وسجاياهم التي تفرض عليهم عدم النفور من أحد، وإفشاء السلام، والمعاملة بالحسنة إلى أنهم لم يطبقوا قواعد النّظافة، وعدم المخالطة تجاه المصابين بالجذام مثلًا، إذ يلمسونهم ويأكلون معهم ولا حوادث تنتج عن ذلك (غزال، 2008، 31)، إذ لم تكن لديهم ثقافة صحيّة آنذاك، ومن المحتمل أن ذلك يعود لتأخر وجود المدارس في المدينة، ومن ثم المراكز الطبية التي لم تظهر سوى في بداية القرن العشرين، وما لها من دور توعوي تجاه نظافة الأشخاص وثقافة المجتمع حول الأمراض المُعدية، واعتماد المجتمع على العادات والتقاليد الدينية والاجتماعية في موضوع النّظافة.

3- الرقابة الحكومية:

أوكلت إلى مجلس الولاية مهمة الإشراف على المنافع العمومية والصحة العامّة(عوض، 1969، 106-107)، ثم أصبحت من

مهام مجلس البلدة المحافظة على النّظافة، أمّا الدور الحكومي على الأرض فتلخص بثلاثة جوانب مهمة؛ الأول متعلق بفرض الضريبة عن افتتاح أي حمام (عوض، 1969، 110-165)، والضرائب المُرتفعة على الدكاكين والمنازل(مجهول، 1895، 32) بحجة النّظافة والحماية؛ فقد سمحت الحكومة في فتح الدكاكين ساعتين بعد الغروب (سامي، 69،1892)، أمّا الجانب الثاني فهو التدخل بالنّظافة الشخصية باسم الدين، ففي عام 1818 أمر الوالي أهل السنة في دمشق بإطلاق لحاهم، ومن يخالف ذلك يُعدم، وأمرهم أيضاً بتكحيل عيونهم بكحل أسود(عيسى، 2005، 28)، والجانب الثالث وهو الإيجابي؛ إذ أنشئت الطرقات وتوسعت في المدينة في القرن التاسع عشر، وأقيم على جانبيها أرصفة، وما بين الرصيف والطريق قناة مكشوفة لنقل المياه صيفًا لرش الطريق، وتصريف مياه الشتاء في فصل الشتاء(قساطلي، 1982، 100)، ونقلت القنوات المتفرعة صناعيًا عن نهر بردى، والمارة بالقرب من القلعة جزءًا من فضلات المدينة موصلة إياها إلى الغوطة، من دون تدخل من الحكومة للحفاظ على نظافة المياه في تلك المنطقة تحديدًا(كيال، 2004، 28-29)، وعلى كل حال لم تكن الطرقات كلها نظيفة، وذلك يعود إلى تراخي الإدارة في دمشق(قساطلي، 1982، 117)، كما سنعرّج عليه لاحقًا في هذا البحث.

ثانياً: نظافة المنازل والأشخاص:

1- المنازل:

كانت منازل الدمشقيين بمعظمها تتمتع بالنّظافة، إذ تشير الوثائق دومًا لوجود بئر أو بركة ماء في الدور، وإن ما يقارب 50% من الدور فيها طابق ثانٍ، وقد تشمل الدار مجموعة من البيوت(مارينو، د.ت/2000، 282-289)، وعلى الرغم من اتساع الدور في معظم الأحيان، كان من أكبر العيوب الاجتماعية على المرأة ألّا تغسل أرض دارها مرة أو مرتين في اليوم، أو لا تمسح البلّور(الطنطاوي، د.ت،12)، ومن العادات المُستحبة لدى الدمشقيين هي غسل الأيدي قبل وبعد الطعام (سامي، 1892، 74)، ومن اللافت _نظراً إلى وجود البرك في المنازل_ أنها كانت تشكّل مسابح صغيرة للأطفال يلهون بها (علي، د.ت، 11).

كانت المياه في المنازل مسلطة على بيوت الماء، ومتوافرة فيها باستمرار، مما يُذهب الروائح الكريهة من المنزل (القاياتي،

1981، 137)، وتشير إحدى الوثائق التي تبيّن لنا أهمية المياه في المنزل أن ترميم إحدى الدور التابعة للوقف كان من ضمنه تمديد خط مياه حلوة للمنزل، وتعزيل خط المياه المالحة الخارجة منه(س.ش: 434، 1268هـ، و266)، ولا يعني وجود المياه في المنازل أن كل منزل نظيف، فهذا يعود إلى أصحاب المنزل أو المكان (علي، د.ت. 11)، وقد أقيمت بعض الأعمال في المنازل كالنسج على الأنوال(إيبش، 2012، 43)، وهذا جعل عملية النّظافة أكثر مشقةً وإجهاداً.

وفي دليل على تعاظم القوة الاقتصادية فقد بنى الدمشقيون الدور الفسيحة والمكلفة جداً (قساطلي، 1982، 97)، وإن هذه الدور لا يمكن تنظيفها سوى بواسطة الأُجراء أو الرقيق، إذ نشطت تجارة الرقيق بدمشق(السوسي،2007، 65-66، 70)، وكان لها سوق رائجة(الصباغ، 1989، 484) بالقرب من خان الجمرك جنوبي غربي الجامع الأموي(نعيسة، 1988، 26)، وفي موسم الحج يعوض الحجاج عن بعض مصاريف الحج بشراء السلع قبل عودتهم، ولا سيما البن، والعبيد السود، والحبش (سوفاجيه، 1936، 101)، واستخدمت بعض النساء العبيدَ في شؤون النّظافة في المنزل، وكذلك في الحمامات العامّة(أوبنهايم، 1899، 84)، وقد ميزت المحاكم الجواري، والعبيد بعبارتين؛ الأولى سمرة اللون، والثانية بنسبهم إلى عبد الله بن عبد الله: **سئلت الحرمه سعده بنت محمد بن سعيد اسمر اللون من محلة الشاغور المرأة الكامله بعلها سعيد اغا بن عبد الله بن عبد الله اسمر اللون** ...(س.ش: 1016، 1311هـ، و43)، وكان للجواري حضور في المنزل كواحدة من الأفراد(س.ش: 1111، 1315هـ و37) تتمتع بحقوق معينة كحق التصديق والشهادة (س.ش: 1111، 1315هـ و39)، وعلى الرغم من ذلك فقد تعرّضت بعضهن إلى التعنيف والقتل أيضًا(س.ش: 550، 1280هـ، و190)، ونجد في ذلك أن للعبيد دور في نظافة الدور الكبيرة التي يعجز أصحابها عن تنظيفها من دون الاستعانة بآخرين، على الرغم مما تحمله العبودية من معانٍ وسمات سلبية، فقد كانت في دمشق إحدى وسائل الحفاظ على النظافة، وأدت فيما أدتهُ أيضًا إلى التمازج الاجتماعي ونشوء جيل جديد نتج من زواج رب الأسرة بالجواري والإنجاب منهن، أو اعتاق رب الأسرة للعبيد الذين يملكهم وينخرطون في المجتمع (نعيسة، 1986، 362 - 363).

وفي ذلك نجد أن استخدام الدمشقيين للمياه كان إيجابيًا في معظمه، فقد سخروا المياه لنظافة منزلهم ونظافتهم الشخصية

بالدرجة الأولى، لكن وفي العموم فإن تصريف المياه الآسنة كان له أبرز الأثر مع الزمن في تلويث المياه العذبة بالقرب من دمشق، كما يتبيّن مما سبق أن خدمات النّظافة المأجورة قد ظهرت باكرًا في المنازل وذلك باستخدام العبيد، وظهر التفاوت الاجتماعي واضحًا بين النساء في منازلهن نتيجة لذلك، ولا بد أن ذلك، وبسبب الترابط الاجتماعي قد جعل المنازل أكثر نظافة.

2- الحلاقة والتجميل، ودورهما في النّظافة الشخصية:

أثرت الحياة الاجتماعية وأساليبها البسيطة في العلاج والتوعية، ورفد المجتمع بحاجاته؛ فكانت دكان الحلاق هي عيادة الطبيب الجراح، وطبيب الأسنان والعيون، فضلًا عن أنها مملوءة بالمواعظ الاجتماعية، والصحية المعلقة على جدرانها(العلاف، 1976، 138، 143)، فأخذ الحلاق بالوراثة أو التعلم عن سلفهِ كيفية التعامل مع الناس، وإرشادهم صحيًّا، ولم يقتصر عمل الحلاق على دكانه فحسب؛ بل كان يذهب إلى المنازل وإلى الحمام ليقص؛ شعر العريس في يوم عرسه، ومن يرغب من الزبائن (مبيضين، 2009، 55).

ولم تخلُ سوق من أسواق مدينة دمشق من حلاق أو أكثر، وكانت بعض دكاكين الحلاقين مزينة بالمرايا الكبار، والقطع الفنية الجميلة، والتصاوير لأشخاص جميلي المظهر، أمّا عدّة الحلاق فهي أمواس ومقصات، ويتقاضى بالمتوسط من 3 قروش فصاعدًا(القاسمي، 1988، ج1، 103-104)، وكانت بعض دكاكين الحلاقين كبيرة الحجم في الأسواق قياسًا لحجم الدكان العادية(س.ش:1015، 1312هـ، و205)، (س.ش:857، 1305هـ، و98)، واستطعنا إحصاء عشرة حلاقين داخل أسوار المدينة(س.ش:420، 1266هـ، و127)، (س.ش: 1277، 1322هـ، و7)، (س.ش: 629، 1287هـ، و5)،(س.ش: 831، 1304هـ، و54)، (س.ش:461، 1271هـ، و132)، (س.ش: 457، 1269هـ، و141)، (س.ش: 831، 1304هـ، و54)، و23 حلاقًا خارج أسوار المدينة، وذلك حتى نهاية الحكم العثماني في دمشق(س.ش: 525، 1277هـ، و101)، (س.ت: 17، 1305هـ، و33)، (س.ش: 459، 1270هـ، و119-120)، (س.ش: 416، 1265هـ، و195)، (س.ش: 933، 1309هـ، و204)، (س.ش: 410، 1265هـ، و161)، (س.ش: 782، 1303هـ، و120)، (س.ش: 857، 1305هـ، و112)، (س.ش: 839،

1304هـ، و11)، (س.ش: 420، 1266هـ، و127)، (س.ش: 483، 1273هـ، و121)، (س.ش: 775، 1302هـ، و136)، (س.ش: 467، 1271هـ، و206)، (س.ش: 429، 1267هـ، و52)، (س.ش: 410، 1264هـ، و134).

كانت ترتكز ثقافة المجتمع إلى عنصر النّظافة الشخصية، وتعتني بالتزيين؛ فعندما يريد أحدهم الزواج تذهب والدته والمقربين منه من النساء إلى دار العروس، ويرونها ويركزون على نظافتها، ويستقصدون أن يروها وهي تغسلُ في المنزل، وتنظفه، وكذلك الطبخ وما يستلزم من نظافة ثم يذهبن برفقتها إلى الحمام العام ويرون جسدها، ومدى نظافته، والاعتناء بالنّظافة الشخصية، وينقلن كل ذلك إلى رب الأسرة (علي، 1928، 284)، فيما دعا بطرس البستاني عام 1849 إلى تعليم النساء واجباتها المنزلية من ترتيب ونظافة في مدارس خاصة لذلك، وعدم الاعتماد فقط على المجتمع(البستاني، 1939، 14).

كان أهل دمشق ونساؤها يهتمون بالنّظافة وبتزيين الفتاة في المناسبات، وفي يوم زفافها، إذ تُكَرَّمُ الداية التي زيَّنت الفتاة في ليلة زفافها، وتسمى الماشطة، نسبةً إلى أنها تمشط شعر العروس، وتعتني بها، وتراقب مدى نظافتها (سركو، 2008، 147)، وتمسّك الدمشقيون في عادة تزيين العروس ولباسها، وفي استخدام العطور والمواد التجميلية المتوافرة ليلة زفافها (علي، 1928، 285)، وكانت النساء في تحرر مستمر واهتمام بالمظهر(Hafteh, 2012, 96).

نجد مما سبق أن النّظافة الشخصية والتزيين انطبق على الذكور والإناث، وكان له أثر فاعل في ظهور الرجال والنساء بمظاهر لائقة ومُستحبة في الأسواق والمناسبات العامّة، وكذلك النساء، وكانت ليلة الزفاف هي بمثابة تعريف عن مدى قدرة الأسرة على إظهار فتاتهم بأبهى حُلّة وأفضل حال، إذ أن الأمر يرتبط بعناصر النظافة الشخصية، ومدى المهارة في إظهارها مع التزيين.

ثالثًا: معوقات النّظافة في المدينة:

1- الأعياد والمناسبات العامّة:

أكثر ما يميّز دمشق هو تجمع قافلة الحج الشامي بها قبل ذهابها إلى مكة المكرمة مما نتج عنها كثيرٌ من المفرزات الاقتصادية الإيجابية التي حاول أهل دمشق وما حولها الاستفادة منها قدر الإمكان؛ فقد جمعت قافلة الحج الشامي من 20 إلى

60 ألف مسلم في دمشق كل عام، وفي الوقت نفسه(الصواف، 2014، 46)، مشكلةً حالة اقتصادية فريدة وضغطاً كبيراً على موارد المدينة مما يؤثر في النّظافة فيها (الأسطواني، 1994، 36)، فكثير من أهل دمشق الفقراء يعتاشون من موسم الحج كالبيع بالأمانة للحجاج أو إسكان الحجاج في بيوتهم (الصيادي،1330هـ، 125)، وتنشط تجارة الجمال والخيول مع مرور القافلة، إذ يعمد الحجاج إلى بيع جيادهم التي أتوا بها ليشتروا عوضاً عنها الجمال؛ لقدرتها على عبور الصحراء وتحملها العطش، لأن دمشق آخر مدينة متحضرة يصادفونها في طريقهم لمكة، وأيضًا؛ يستأجر الحجاج الدواب أو يشترونها أو يقايضونها بما يملكون من بضاعة، وكذلك يأخذون الطعام والشراب، ومن الحاجات المهمة التي يبيعها أصحاب الحوانيت للحجاج هي القُرَب التي تصنع في دمشق من جلود الغنم والماعز لتحفظ الماء(السوسي، 2007، 64، 68–70)، وللأهمية البالغة للحج فقد وُجد قسم كبير من تجار الحبوب في الميدان[1] وسوق ساروجا (حسن، 2012، 67) لتأمين الحجاج بما يحتاجون من مؤونة، كما نشأ سوق المحايرية[2] الذي تميّز ببيعه لصناعات دمشقية خصصت للحجاج؛ ففيه تُصنع كل مستلزمات نقل الحجاج، وقد ظهر خارج الباب الغربي لقلعة دمشق على ضفة الخندق بالسنانية مجموعة أسواق مؤقتة تشتمل على الثياب والأحذية والمعدات الخاصة بالحج من أكياس ورحال وغيرها(Jessup, 1910, 601)، (سوفاجيه، 1936، 45)، وفي عام 1851م اشترى ما يقارب 40 ألف حاج من دمشق 2495 قطعة قماش إنكليزي، 2700 رزمة خيوط قطنية، 12000 رطل سكر فرنسي، 80 ألف رطل سكر إنكليزي(صياغة، 1995، 168)، وهذا يجعل شوارع المدينة وأزقتها مملوءة بالمخلفات البشرية والصناعية والحيوانية مدة زمنية قد تطول أسابيع، ويمكننا أن نستنتج أن هؤلاء احتاجوا إلى خدمات النّظافة جميعها بدءًا بالشوارع والأسواق وانتهاءً بالمنازل التي قطنوا بها، ولم تكن الدولة العثمانية متفرجة على هذه التظاهرة السنوية الفذة، فقد تدخلت بتنظيمها والاهتمام بها وجعلت كل البضائع المرافقة لقافلة الحج الشامي معفية من الضرائب، أما قبل وصول الحجاج إلى دمشق فتعمد إلى تشديد الرقابة في الأسواق وضبط الأسعار، ونظافة المدينة(السوسي، 2007، 50، 53)، وقد كان تجمّع الحجاج فيها مقياس حضاري لمدى قدرة الوالي والأهالي على جعلها مكانًا

[1] نشأت في العهد العثماني منطقة الميدان جنوب المدينة بسبب الحج، وازدهرت دمشق باتجاه الجنوب على امتداد أكثر من كيلو مترين(ريمون، 1991م، 40).
[2] المحايرية: من المحارة وهي شبيهة بمحمل مصنوع من الخشب ومغطى بالقماش يتسع لفراش راكب واحد مع ثيابه ومطرة ماء، ويوضع على ظهر الجمل إثنان من المحاري التي كان يقوم بشرائها الحجاج غالباً. السوسي: قافلة الحج الشامي، ص55.

للتجمعات البشرية الكبرى والحفاظ على نظافتها، واستيعاب كل المخلفات الصناعية والبشرية التي يتركها وجود تلك الاعداد الكبيرة من الناس في حيّز جغرافي غير واسع النطاق، وفي بحثنا عن طرائق تعامل الدولة مع موضوع النظافة، لم نجد في متناول أيدينا ما يشير إلى فرضها عقوبات على من لا يحافظ على نظافة المدينة، ولم تسجّل المحاكم في دمشق، وفق اطلاعنا على مئات السجلات، ما يثبت أن الدولة اتخذت إجراءات من نوع ما كعقوبات على اهمالهم النظافة.

أما في الأعياد فتنشط الحركة التجارية ولا سيما قبلها مباشرة، فتعرض البضاعة كالأرز والسكر والسمن مزينة بالزهور، وأيضاً كل أنواع السكاكر وألعاب الأطفال والمفرقعات (العلاف، 1976، 48)، وفي الحالة العادية تشاهد بأسواق دمشق ألوف الناس يوميًا، أما آخر أيام الأعياد فهي تغص بالناس كما وصفها القساطلي (القساطلي، 1982، 100)، في حين تتبدل أحوال السوق تمامًا بأول أيام الأعياد ولا سيما في نهاية رمضان؛ إذ تخلو المدينة من الحركة اليومية (وافل، 2011/1913، 71)، وتفتح الأعياد بابًا للرزق لبعض أصحاب الدكاكين فيجلب في العيد الضباع والوحوش ليريها للأطفال ويكسب المال(العلاف، 1976، 50)، وتخرج النساء في الأعياد والمناسبات وتلبس النسوة اليهوديات والمسيحيات إزارًا أبيض نظيف (سامي، 1892، 70).

نستطيع مما سبق أن نتصوّر مدى الجهود الكبيرة التي تحتاجها المدينة لتخلو من الآثار السلبية للتجمعات البشرية الكبيرة، فهي تعد معوقات وتحديات تواجه الدولة والمجتمع في آن معًا، فيما تأخذ المدينة أقساطًا من الراحة والهدوء في مدد زمنية معينة، ولا سيما أيام الجمعة، وفيها يستطيع الدمشقيون وعمال النظافة العمل بحرية أكثر وإزالة المخلفات السابقة.

2- بيع الخضار والفواكه في الشوارع والأسواق:

تزدحم الأسواق يوميًّا ازدحاماً كبيراً، ويختلط البائعون بالمارة، والمتسوقين، والنقالين، والأدلاء، والسائلين، والحمالين، والدواب (سوفاجيه، 1936، 30)، ومع كل هذا الخليط بدت أساليب التجارة بسيطة للغاية، وكثر عرض المنتجات على الأرصفة أو في الساحات العامّة، وباحات الدوائر الرسمية كالخضار، في حال كانت الكميات قليلة، أما في حال وجود كميات كبيرة فتنقل إلى سوق الخضرية المخصص لبيع الخضار ليعرضها تجار الجملة(صياغة، 1995، 148)، وبعض الباعة يحملون بضائعهم على

الحمير، ويجولون فيها في الأسواق والأزقة(العلاف، 1976، 174)، وكل ذلك حتمًا يؤدي إلى مخلفات كثيرة تحتاج إلى ترحيل يومي لتبقى المدينة نظيفة؛ إذ يصعب إبقاء تلك الآثار من دون معالجة، ومن المحتمل أن أحد وسائل المعالجة هي إطعام بقايا الفواكه والخضروات للدواب ذاتها التي تحملها، أو على الأقل المحافظة على بقاياها للحيوانات، أما التالف منها والذي لا يصلح علفًا للحيوانات هو الذي يشكّل تلوثاً في الشوارع والأسواق.

3- استخدام الدواب في جر البضائع وحملها داخل المدينة:

كان هناك عدد قليل ومحدود من الاسطبلات داخل مركز نشاط المدينة في المنازل أو لصيقها، وكان أهل دمشق يهدمون الاسطبلات ضمن المدينة وعلى مقربة من أسواقها؛ لتحاشي نزول الجيش العثماني فيها، على الرغم من العقوبات القاسية من السلطة(مارينو، د.ت، 293)، فيما كانت العربات المخصصة للنقل التي تجرها الخيول تتجمع في ساحة المرجة، وتستخدم للنقل إلى داخل وخارج المدينة (العلاف، 1976، 35)، وفضلًا عن ذلك فقد استخدمت الخيول في المراسلات والنقل البعيد (علي، 1925، 193)، وكانت الحكومة تقيس مقدار الضرائب بأحمال الحيوانات (البخيت، 2008، 173)، أمّا مخلفات الحيوانات الموجودة يوميًّا في المدينة فقد كان أصحاب البساتين يرسلون عمالهم كل يوم إلى شوارعها؛ ليجمعوا الأوساخ الناتجة عن روث الحيوانات؛ لاستخدامها سمادًا لأراضيهم، ويوفرون في ذلك مبالغ كبيرة على المدينة وعلى أنفسهم(سامي، 1892، 60-61)، وفي ذلك عملية مقايضة لو أنها لم تتم لكان واقعُ الشوارع في المدينة ملوّثًا بورث الحيوانات، وهنا لا بد من الإشارة إلى أن بعض الظروف الجويّة قد تحول دون أن تنظف الشوارع، أو أن هؤلاء العمال لا ينظفونها تمامًا، ومن المحتمل أنه مع الزمن يصبح روث الحيوانات من ضمن الشارع نتيجة اندماجها بالماء والتراب وتعرضه إلى الضغط من الحيوانات والناس العابرة يوميًّا.

4- عرض البدو لمواشيهم ودوابهم في الأسواق:

نمت علاقات اقتصادية واجتماعية بين سكان مدينة دمشق، والبدو المحليين القاطنين حولها، ومن العمليات التجارية المهمة التي جرت في دمشق هي شراء الخيول التي تتم من نيسان حتى تموز من كل عام، وفيها يجلب البدو الخيول؛ لسوقها وسط دمشق

ويأتي الأوروبيون لشرائها، وتحسين نسلها، ولا سيما في الجزائر المُحتلة آنذاك من قِبل فرنسا، وذلك لتميّز الخيول العربية بقدرات عالية في الحروب، فيرفع البدو من أسعارها مما يسمح للوسطاء المحليّين بشراء الخيول من البدو ثم بيعها للأوروبيين، ولا سيما المُهر التي تراوح ثمنها بين 500 وألف قرش، ونظرًا إلى رخص العلف في دمشق كان الأوروبيون يتركونها فيها سنة كاملة ليتأكدوا من أصالتها فإما أن يأخذوها، وإمّا أن يبيعوها في دمشق محققين أرباحًا كبيرة (رافق، 1984، 156)، أيضًا؛ وجدت مئات الأغنام في حي الميدان يوميّاً، ووجدت المدابغ على ضفاف بردى وداخل السور (مارينو، د.ت، 139)، ولحاجة السوق إلى اللحم يوميًّا أنشئت المسالخ في باب المصلى بالأزقة قرب المحال التجارية (رافق، 1987، 12)، وكان يذبح في دمشق كل يوم 3 آلاف رأس غنم(الحبشي،(2012، 152)، مما أدى إلى انتشار الكلاب الشاردة في المدينة (البديري، 1995، 74–75)، ولنا أن نتخيّل مقدار ما تتركه هذه الحيوانات من مخلفات، ومدى الحاجة إليها كأسمدة للبساتين الزراعية، وأيضًا نستطيع تصوّر كمية بقايا الروث التي تختلط بأتربة الطرقات، وما ينتج عنها من روائح وأبخرة سامة، وقياسًا في ذلك العصر، فإن تلك الروائح والبقايا عادية لأن وسيلة النقل الأساسية هي الحيوانات، أمّا آثار ذلك على البضائع في الأسواق، وآلية تنظيفها ومنشآتها، فلا بد من دراسة خدمات النّظافة المأجورة.

رابعاً: النّظافة في بعض منشآت المدينة:

1– خدمات النّظافة المأجورة في الأسواق:

تحدث معظم الرحالة والغرباء عن النّظافة في أسواق المدينة(علي، 1981، 76)، (Porter, 1855, 32)، فقد كانت المياه في الأسواق دائمة وبعضها فيها برك ماء(الصالحي، 1993، 299)، (the inner life of Syria, 1885, 40)، ولكن ذلك لا ينطبق على أسواق المدينة كُلها، إذ تُعد أسواق تحت القلعة الأكثر تلوثًا في دمشق ففيها أسواق الدواب والجمال والبقر والفاكهة (العلبي، 1989، 450)، وبالقرب منها وتحديدًا في خندق القلعة تتجمّع المياه المالحة من فضلات الحمامات، ومنه إلى نهر بردى وتنبعث من تلك المنطقة الروائح الكريهة(نعيسة، 1986، 94)، وفي حالات استثنائية كانت المدينة تتضرر نظافتها كما في أحداث

1860(مشاقة، 1908، 177-178)، فضلًا عن ذلك فقد نشطت الصناعة ضمن الأسواق كصناعة الجلود والدباغة والجبس والحبال، ونتج عنها كثيرٌ من الأوساخ (محمود، 1988، 122)، ووظفت البلدية كناسين لكنس الشوارع والأسواق والأزقة، وأعطت الواحد منهم راتب 4 قروش في اليوم، لكنه لم يكن يقوم بدوره كما يجب، مما حدا بالأهالي وأصحاب الحوانيت الدفع له أو لغيره ليقوم بإزالة الأوساخ(القاسمي وآخرون، 1988، ج2، 395)، والدفع أيضًا للرشاش الذي كان يرشُ المياه يوميًا في الأسواق وأمام الدكاكين إذ إن زوار الأسواق ينقلون الغبار والأتربة ونتيجة لكثرة رش الماء تصبح الأرض صلبة كالخراسانة، وهذا ما ينعكس على نظافة البضائع، وكانت الأرض في الأساس ترابية غالباً أو مرصوفة بالحجارة في حالات قليلة (نعيسة، 94،1986)، وتراكمت عليها الأتربة(قساطلي، 1982، 100)، ويرش الرشاش الماء صيفًا في الصباح وعند الظهيرة أمام الدكاكين التي يدفع له أصحابها معاشًا شهريًا يشتركون في دفعه(القاسمي، 1988، ج2، 156)، (Paton, 1844, 13)، ومن الجدير ذكره أن سكة القطار عند المحطة كانت تُرش بالماء عند قدوم الرحلات(سامي، 1892، 47).

نجد مما سبق أن خدمات النّظافة المأجورة في الأسواق وقعت في معظمها على عاتق أصحاب الحوانيت، وكانت جزءًا من متطلبات الاستمرار في العمل، وأن الدولة وظفت عمال نظافة ومنحتهم الأجور مقابل قيامهم بأعمال النظافة، لكن يبدو أن ذلك لم يكن كافيًا، إذ لم تكن الدولة مسؤولة عن نظافة البضائع، كما أن المسؤولين لم يفكروا في حلول لخندق القلعة وكيفية معالجة المياه المالحة الناتجة عن الفضلات داخل المنشآت المعمارية، وهذا أدى إلى وجود بؤر تلوّث أثرت على نظافة المدينة.

2- النّظافة في الخانات:

شكلت الخانات عصب التجارة داخل دمشق، ففيها كان ينزل التجار، وفيها توضع البضاعة القادمة إلى دمشق قبل عرضها أو قبل ترحيلها لبلاد أخرى، ووجد بدمشق بداية القرن العشرين 139 خانًا وهي أنواع عدّة؛ نوع لأصحاب التجارة داخل المدينة، والآخر للدواب متفرق حولها (الصيادي، 1330هـ، 110)، ومن الخانات ما يقدّم خدمة للتجار ويفصل الدواب عنهم في أماكن مخصصة، وأخرى للفقراء والمكارين، وتوضع الدواب في الأسفل، والغرف السكنية بالأعلى (قساطلي، 1982، 110)، وقد اهتم

الولاة منذ بداية العصر العثماني ببناء الخانات(الأرناؤوط، 1993، 57)، (س.ش: 450، 1269هـ، و98)، وكانت كثير من خانات دمشق تعج بخليط من الناس والإبل والخيل وتزهر بها عمليات البيع والشراء (الصياح، 2006، 162)، ولأهمية الخان حتى باحته غير المسقوفة يستفاد منها، ففي كل خان بوّاب يستأجر ساحة الخان ويأخذ أجرته من المشترين (البارودي، 1999، 39–40).

قدّمت قلة من الخانات خدمات النّظافة والعناية بها للنزلاء (سامي، 1892، 77)، وكانت الخانات مزودة بالمياه والعمال(قساطلي، 1982، 110)، لكن ليس العمال لخدمة الغرف بل للعمل في التحميل والتنزيل (لطفي، 2103، 36)، إذ أن غالبية الخانات لا يوجد فيها عمال نظافة، وغرفها في الأعلى ليست مفروشة، وغالبًا ما تكون مملوءة بالحشرات والغبار، ويحتاج التاجر أو الذي يريد استخدام الغرفة إلى غسلها بالماء بنفسه، وفرشها مما أحضر معه من سجاد وبسط ومخدات (أوبنهايم، 2008، 77)، فضلًا عن ذلك شكلت بعض الخانات جزءًا من السوق واحتاجت إلى عمليات نظافة داخلها، ومنها خان التوتن، وخان الحرير(س.ش: 1111، 1315هـ، و37)، وخان التوتية(س.ش: 666، 1293، و85)، فيما كانت بعض الخانات ورش صناعية ولا سيما للأقمشة بكل أنواعها(س.ش: 335، 1250هـ، و96)، (س.ش: 882، 1305هـ، و13)، (س.ش: 870، 1306هـ، و152و204)، (س.ش: 685، 1295هـ، و149)، (س.ش: 1097، 1314هـ، و43)، (س.ش: 550، 1279هـ، و151)، ومن الخانات ما يبيع الزيت، والدبس (البارودي، 1999، 42)، والليمون، وهو متخصص (س.ش: 731، 1298هـ، و236)،

فضلًا عن ذلك فقد خُصصت كثير من الخانات للدواب (س.ش: 780، 1302هـ، و10)، (س.ش: 1451، 1330هـ، و41)، (س.ش: 712، 1297هـ، و13)، (س.ش: 628، 1288، 27–28)، (س.ش: 1050، 1312هـ، و64)، (س.ش: 490، 1273هـ، و131)، (س.ش: 717، 1297هـ، و8)، فهي حاجة ضرورية للتجار المتنقلين، وكان الزبَّال ينظّف تلك الخانات وينقل على الدواب روث الحيوانات منها، ويشتريه منه أصحاب الحمامات العامّة(القاسمي، 1988، ج1،163).

يتبيّن مما سبق أن الخانات هي أماكن تجمع مؤقتة لمجموعة من الناس تربطهم مصالح مشتركة، وأن عملية النّظافة من مخلفات الحيوانات والصناعة والبيع تطلبت مجهودًا كبيرًا ضمن تلك الخانات، ولا سيما ترحيل القمامة ونواتج الصناعة منها،

واستفاد من ذلك طرفٌ آخر هو الزبال في عملية تشبه خدمة النّظافة بمقابل من طرف آخر، إذ كان بالإمكان توظيف أناس داخل الخان وبيع صاحب الخان روث الحيوانات والفضلات لأصحاب الحمامات، ولكن من المحتمل أن قيمة ومجهود ذلك كان لا يفي بالغرض، والزبال الواحد كان ينظّف عدّة خانات ليستفيد منها، ولم تشر المصادر لمقابل مادي يأخذه الزبال من صاحب الخان.

3- خدمات النّظافة في الفنادق:

أحدثت الفنادق في دمشق نتيجة لعدم اهتمام أصحاب الخانات بفرش الغرف وتوفير خدمة النّظافة للزبائن، ولا سيما القادمين من أوروبا بعد الانفتاح العثماني على الغرب، ورغبتهم في الحصول على قسط وافر من الراحة وتركيزهم على النّظافة، وخدمات النظافة المأجورة، فقد وصف عبد الرحمن بك سامي مدير المينا في مصر الذي زار دمشق في نهاية القرن التاسع عشر فندقًا نزل بهِ أنه غاية في الترتيب والنّظافة، وفي وسطه بركة ماء عذب تتدفق منها الماء باستمرار، وتظللها أشجار الليمون وحولها نظمت الزهور والرياحين (سامي، 1892، 47)، وتوافرت المياه العذبة في الفنادق، وكانت غاية في النّظافة، واستخدمت فيها الناموسيات (الحبشي، 2012، 113)، إذ وكما ذكرنا سابقًا فقد كانت تجمعات المياه الآسنة، والاستخدام المُفرط للمياه في المدينة قد جعل منها مكانًا لتجمّع الحشرات، فيما كانت الفنادق تمثّل الوجه الحضاري للمدينة أمام الغرباء يتمثّل في نظافة فنادقها، وحسن ترتيبها، وبدأت كثير من الخانات الخاصة بالنزلاء تتحوّل مع الوقت لمخازن ودكاكين ومشاغل.

4- النّظافة في المقاهي:

شكّلت المقاهي حالة اجتماعية وترفيهية مهمة لسكان مدينة دمشق، وكان منها قديم الطراز ومنها الحديث، وقدمت خدمة النّظافة المأجورة سواء بأدوات الشرب، وغلي المشروبات أم بأماكن الجلوس (سامي، 1892، 78)، وكان في دمشق عام 1879 ما يقارب 110 قهاوي، وبلغ سعر فنجان القهوة من 10 بارات حتى 20 بارة وفق القهوة والمقهى، وكانت تفتح أبوابها ليلًا ونهارًا ما عدا فصل الشتاء فتقتصر في العمل على النهار (قساطلي، 1982، 109)، ومن المقاهي ما سمي نسبة إلى وجود نوفرة ماء فيها ومنها مقهى النوفرة، الذي أنشئ في القرن السادس عشر ولا يزال(مبيضين، 2013، 192)، ووردت في الوثائق: **(جميع القهوة**

خانه الكاينة عجلة باب جيرون وتعرف بقهوة الذهبية والنوفرة المشتملة على براني وجواني ومساطب وداخل وفنا وجدر وسقف وباب وشبابيك ومنافع شرعية...)(س.ش: 490، 1274هـ، و252).

وكانت أسعار المقاهي مرتفعة إذ بيعت إحداها في سوق العتيق بـ 22707 قرشًا وخمس بارات عملة فضة وذهبًا دارجة البلدة(س.ش: 731، 1298هـ، و236)، وسميت بعض المقاهي بمصيف قهوة(س.ش: 763، 1301هـ، و67)، ومن المقاهي المشهورة قهوة المناخلية(س.ش: 832، 1304هـ، و84)، وغيرها مما ورد في الوثائق(س.ش: 436، 1268هـ، و310)، ولا بد من الإشارة إلى أن المقاهي استخدمت صحون نحاسية صغيرة؛ لوضع رماد وبقايا الدخان فيها والناتج عن استخدام الغليون الطويل والمستقيم للتدخين (أوبنهايم، 2008/1899، 88-89).

يتبيّن مما سبق أن الخدمات التي قدمتها المقاهي لم تقتصر على التسلية، بل كان جزء منه يتعلّق بالنّظافة التي يطالب بها كل الزبائن؛ لأن أدوات الشرب متعددة، ومتكررة الاستخدام، وكذلك الطاولات، وكان صاحب القهوة أو أحد العمال يقوم بالتنظيف دوريًّا، ولا زالت خدمات النظافة المأجورة في المقاهي حتى عصرنا هذا وفي تطوّر مُستمر.

5- خدمات النّظافة في الحمامات العامّة:

ينقسم الحمام، وفقاً للمصادر، إلى البراني، والوسطاني، والجواني؛ في البراني يجلس المستحمون بعد الحمام على سبيل القيلولة، وفيها بركة ماء، وحولها مصاطب مفروشة بأثاث حسن، وفيه تُخلع الملابس، ويقدم العاملون في الحمام البشاكير والمناشف للزبائن، والوسطاني هو الدهليز الذي يفصل البراني عن أماكن الاستحمام في الجواني الذي فيه يجري الاغتسال بعد توفير الماء الساخن والبارد(سامي، 1892، 78)، في حين تشير الوثائق أن قسمًا آخر في الحمام يسمى الأقميم، وهو مكان حلتي النحاس: **من جميع الحمام الجاري بتمامه في وقف المرقوم الكاين ظاهر دمشق عجلة السنجقدار بالقرب من سوق الخيل ويعرف بالحمام الناصرى المشتمل كامله على براني وجواني ووسطاني وقميم فالبراني يشتمل على ساحه مسقفه بها بركة ماء... ومساطب مستدريره واوجاق قهوه والوسطاني يشتمل على عدة اجران ومقاصير وبركة ماء والجواني يشتمل على عدة مقاصير واجران**

ومغطس والاقميم يشتمل على ساحة مسقفة ومصنع وحلتي نحاس احداهما ناريه والثانية دخانيه ومنافع شرعيه...(س.ش: 434، 1267هـ، و264)، وكان هذا الوصف متكرر للحمامات العامّة في الوثائق، ومنها حمام عقيل في الميدان (س.ش: 526، 1277هـ، و26)، وكانت قيمة الحمامات مرتفعة كا المقاهي، إذ بلغت 18267 قرشًا لحمام الناصري(س.ش: 434، 1267هـ، و264)، ولوفرة الماء في الحمامات صادف أن أخذ سبيل ماء إلى الشارع من أحد الحمامات: **السبيل القائم البناء لصيق جدار حمام الدرب الكاينة ظاهر دمشق بالميدان الفوقاني المستمد مائه من الحمام الموقوف...**(س.ش: 552، 1280هـ، و100).

عكس التوسع العمراني توسعًا في بناء الحمامات (مارينو، د.ت/2000، 129)، وكانت أجرة الاستحمام بخسة، وكان في دمشق أكثر من 58 حمامًا عام 1879 م(قساطلي، 1982، 108–109)، واعتمدت خدمات الحمام المأجورة على مجموعة من العاملين المؤهلين لذلك من الرجال والنساء، كلٌّ على حِدة وبأوقات مختلفة(كيال، 2004، 229)، وارتاد الحمامات كل فئات المجتمع، ولم تكن عمليات النّظافة كلها مأجورة، إذ قد يقوم الأصحاب أو المجموعة الذاهبة معًا إلى الحمام في مساعدة بعضها على إزالة الأوساخ (علي، د.ت، 13).

وبرزت عملية النّظافة وأهميتها في وثائق المحاكم الشرعية، إذ كان يُشار إلى حاجات المُنفق عليهم، ولا سيما من النساء في مدّة غياب أزواجهن عن المنزل، وعند ضيق الحال تقر المحكمة لهن مبلغًا يستدينونه ريثما يعود الزوج، وبما يحتمله من الدفع، وعلى سبيل المثال: سمح لها القاضي في صرف مبلغ 60 قرشًا صاغ وذلك **(لطعامها وترابها وكسوتها وحمامها وصابونها...)**(س.ش: 458، 1270هـ، و146)، وفي وثيقة أخرى: **(فرض سيدنا الحاكم الشرعي حالا برسم نفقة ابنة الشيخ محمد افندي بن سعيد بن عبد الرحمن... القاصره عن درجة البلوغ وتحت ولاية والدها المذكور بالأبوه شرعاً لطعامها وشرابها وكسوتها وحمامها وزيتها وصابونها ولساير لوازمها الشرعية...)**(س.ش: 768، 1301هـ، و47).

نستطيع الاستنتاج مما سبق أن الحمامات العامّة هي أقدم وأبرز وسيلة للنظافة الشخصية المأجورة، وهي المكان الابرز الذي يعمل فيه مجموعة لا بأس فيها من العمال والعاملات في مدتين منفصلتين صباحًا ومساءً في عمليات تتعلق بالنظافة الشخصية، وتتمع الحمامات بصفات خاصة وأقسام عدّة لتوفر للمستخدم الراحة والطمأنينة أيضًا.

الخاتمة:

بقيت مدينة دمشق عامرةً بالسكان طوال آلاف السنوات التي مرّت، وكانت نظافتها أحد أسباب استمرارها، فمن دون النّظافة تجتاح الأوبئة المدن، وربما لم تكن دمشق بعيدة عن الأمراض والأوبئة التي فتكت بها مرات كثيرة، مما عزز أساليب وطرائق النّظافة ووسائلها، واستغل أهلها توافر المياه فيها، وأسهموا مع الدولة العثمانية في جعل المدينة نظيفة قدر الإمكان، وحكم موضوع النّظافة شبكة من العلاقات النفعية بين الاقتصاديين، فحاجة الحمامات للوقود، والبساتين للأسمدة العضوية، جعل تنظيف روث الحيوانات ونقله من المدينة يتم بكل بساطة وبإفادة للآخرين، ومن الممكن القول: إن استخدام مياه نهر بردى في الأسواق والمنازل حافظ على النظافة، ولكن استخدامع على المدى البعيد كان يحمل آثارًا سلبية على البيئة والمدينة، وذلك لسوء عملية تصريف المياه المالحة وتعاظم عدد السكان في المدينة، وهذا ما نشاهده اليوم في كل أجزاء النهر، فلا نستطيع أن نقول: إن الدمشقيين والحكم العثماني نجحوا في تأمين نظافة معظم أجزاء المدينة، ونستثني في ذلك بعض المواضع التي ورد ذكرها في البحث ولاسيما سوقي الخيل وتحت القلعة.

كانت معظم شوارع مدينة دمشق ترابية وليست مرصوفة كما تشيع كثير من المراجع، لذلك كانت عملية اختلاط روث الحيوانات والغبار في الطريق تبدو أكثر منطقيةً من قدرة عمال المزارع على تنظيف كل ذلك الكم من الروث يوميّاً، ولا سيما في فصل الشتاء، وهذا لا ينفي الدور المهم لعمال المزارع في التخفيف من التلوث بكل تأكيد.

نجد أن عملية التنظيف الداخلية كان يقوم بها أصحاب الممتلكات من دكاكين ومخازن، أما الأعمال المشتركة كالشوارع والساحات فيوظف عمال نظافة لها، ويدفع المستفيدون من أصحاب المحال والمنازل للعمال لقاء تخليصهم من الفضلات، وكذلك

يدفعون لمن ينظف مجاري المياه الحلوة والمالحة، ويبدو لنا أن مجلس الولاية ثم البلدية كان يقوم بدوره في توظيف عمال نظافة، وفي مراقبة نقل القمامة، وحرقها بعيدًا عن المدينة، ويُعاقب المخالفين لذلك وفق اعتقادنا سواء موظفيه أم من يكلفهم الأهالي.

وأيضًا نجد من خلال البحث أن مواسم الحج والأعياد التي يتجمع فيها في دمشق عشرات الآلاف من الناس هي مقياس لمدى قدرة المدينة على الحفاظ على نظافتها، ونرى أن هناك نوع من تظافر الجهود بين الدولة والمجتمع لتوفير بيئة مناسبة خالية من التلوث قدر ما أمكن.

وأيضًا؛ نجد أن خدمات النّظافة المأجورة قد تطورت مع الزمن من استخدام العبيد في المنازل والعمال في الأسواق إلى تقديم خدمات المقاهي التي لا شك أن منها مسح الطاولات وكنس الأرض ومسحها، ثم الجمع بين المقهى والمطعم والخان في نموذج الفنادق، وأصبحت خدمات النّظافة أكثر تنظيمًا، وأغلى سعرًا، وأصبح الإقبال عليها أكثر من ذي قبل.

قائمة المصادر والمراجع:

أولا: الوثائق غير المنشورة:

1- سجلات المحاكم الشرعية:

م	رقم السجل	تاريخ الوثائق المستخدمة
1	335	1250 هـ/ 1834م
2	410	1265 هـ / 1848م - 1264 هـ / 1847م
3	416	1265 هـ / 1848م
4	420	1266 هـ/ 1849م
5	429	1267 هـ / 1850م
6	434	1267 هـ/ - 1268 هـ/
7	436	1268 هـ/ 1851م
8	457	1269 هـ / 1852م
9	458	1270 هـ/ 1853م
10	459	1270 هـ / 1853م
11	461	1271 هـ / 1854م
12	467	1271 هـ / 1854م
13	483	1273 هـ / 1856م
14	490	1274 هـ / 1857م
15	525	1277 هـ / 1860م
16	526	1277 هـ/ 1860م
17	550	1279 هـ / 1862م - 1280 هـ / 1863م
18	552	1280 هـ/ 1863م

19	628	1288 هـ / 1871م
20	629	1287 هـ / 1870م
21	666	1293 هـ / 1876م
22	685	1295 هـ / 1878م
23	712	1297 هـ / 1879م
24	717	1297 هـ / 1879م
25	731	1298 هـ / 1880م.
26	763	1301 هـ/ 1883م
27	768	1301 هـ/ 1883م
28	775	1302 هـ/ 1884م
29	780	1302 هـ/ 1884م
30	782	1303 هـ/ 1885م
31	831	1304 هـ / 1886م
32	832	1304 هـ / 1886م
33	839	1304 هـ / 1886م
34	857	1305 هـ / 1887
35	870	1306 هـ / 1888م
36	882	1305 هـ / 1887
37	933	1309 هـ / 1891م
38	1015	1312 هـ / 1894م
39	1016	1311 هـ/ 1893م
40	1050	1312 هـ / 1894م
41	1097	1314 هـ / 1896م
42	1111	1315 هـ/ 1897م
43	1199	1320 هـ / 1902م
44	1277	1322 هـ / 1904م
45	1451	1330 هـ / 1911م

2- **المحكمة التجارية**: السجل 17 تاريخ 1305 هـ / 1887م.

ثانياً: المصادر العربية:

1. الأسطواني؛ محمد سعيد، 1994، *مشاهد وأحداث دمشقية في منتصف القرن التاسع عشر*، تحقيق، أسعد الأسطواني، ط1، دار الجمهورية، 272.

2. البوسعيدي؛ حمود، 2009، *رحلة حمود البوسعيدي 1872 الحجاز – مصر – الشام*، تحقيق، تيسير خلف، دار التكوين، دمشق، 111.

3. البستاني؛ بطرس، 1939، *تعليم النساء*، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 44.

4. البديري الحلاق؛ أحمد، 1995، *حوادث دمشق اليومية 1154 – 1175 هـ / 1741 – 1762* م، تنقيح: محمد سعيد القاسمي، تحقيق ونشر: أحمد عزت عبد الكريم، القاهرة، 305.

5. حسن؛ نجاة قصاب، 1995، *حديث دمشقي 1884 – 1983، المذكرات1*، ط5، مطابع ألف باء – الأديب، دمشق، 368.

6. الحبشي؛ شيخ بن محمد بن حسين، 2012، *الشاهد المقبول بالرحلة إلى مصر والشام وإسطنبول*، تحقيق، محمد أبو بكر باذيب، ط1، دار الفتح للدراسات والنشر، عمان – الأردن، 430.

7. سامي؛ عبد الرحمن، 1892، *سفر السلام في بلاد الشام*، مطبعة المقتطف، 90.

8. فخري البارودي: *أوراق فخري البارودي 1887 – 1966م*، 1999م، تحقيق: دعد الحكيم، جزئان، ج2، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 283.

9. القاسمي والعظم؛ 1988م، محمد وجمال الدين وخليل، *قاموس الصناعات الدمشقية*، ج1 و2، تحقيق: ظافر القاسمي، دار طلاس، ط1، 535.

10. الصيادي؛ عز الدين عربي كاتبي، 1330 هـ، *الروضة البهية في فضائل دمشق المحمية*، مطبعة المقتبس، دمشق، 106.

11. الصالحي؛ محمد بن عيسى بن كنان، 1993، *المواكب الإسلامية في الممالك والمحاسن الشامية*، القسم الأول، تحقيق، حكمت اسماعيل، مراجعة، محمد المصري، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 446.

12. الطنطاوي؛ علي، د. ت، *دمشق صور من جمالها وعبر من نضالها*، دار المنارة، جدّة – السعودية، 160.

13. قساطلي؛ نعمان، 1982، *الروضة الغناء في دمشق الفيحاء*، سلسلة التواريخ والرحلات4، ط2، دار الرائد العربي، بيروت، 161.

14. علي، محمد كرد، د. ت. *المذكرات*، ج1، أضواء السلف، 320.

15. علي؛ كرد، محمد، 1928، *خطط الشام*، ج6، مطبعة المفيد، دمشق، 359.

16. علي؛ محمد كرد، 1925، *القديم والحديث*، ط1، المطبعة الرحمانية، مصر، 247.

17. على، محمد، 1981، *الرحلة الشامية*، سلسلة التواريخ والرحلات3، دار الرائد العربي، بيروت، 253.

18. مجهول، 1895، حسر *اللثام عن نكبات الشام*، ط1، مصر، 283.

19. مشاقة؛ مخائيل، 1908، مشهد العيان بحوادث سوريا ولبنان، تحرير، ملحم خليل عبدو واندراوس حنا شخاشيرى، مصر، 200.

هذا البحث ممول من جامعة دمشق وفق رقم التمويل (501100020595).

المراجع:

1. إبراهيم والجمل، عبد الله وشوقي، 1997م، *تاريخ مصر والسودان الحديث والمعاصر*، دار الثقافة، القاهرة، 346.

2. الأرناؤوط؛ محمد، 1993، *معطيات عن دمشق وبلاد الشام الجنوبية في نهاية القرن السادس عشر*، ط1، دار الحصاد، دمشق، 247.

3. الإيبش؛ أحمد ، 2012، *رحلات في بر الشام في القرن السابع عشر الميلادي – نصوص منتقاة لمجموعة من الرحالة الأوروبيين*، ط1، هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة – دار الكتب الوطنية، 207.

4. الإيبش والشهابي، أحمد وقتيبة، 1998، *دمشق الشام في نصوص الرحالين والجغرافيين والبلدانيين العرب والمسلمين*، ج1، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 445.

5. البخيت؛ محمد عدنان، 2008، *دراسات في تاريخ بلاد الشام ((سورية ولبنان))*، المجلد الثالث، المعهد الفرنسي للشرق الأدنى، المركز الوطني للبحث العلمي – فرع الدراسات العربية، دمشق، 412.

6. سركو، ماري دكران، 2008، دمشق فترة السلطان عبد الحميد الثاني 1876 – 1908، الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق.

7. سوفاجيه؛ جان، 1936م، *دمشق الشام لمحة تاريخية منذ العصور القديمة وحتى العصر الحاضر*، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 52.

8. صياغة، نايف، *الحياة الاقتصادية في مدينة دمشق في منتصف القرن التاسع عشر*، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1995م.

9. الصياح، طليعة، دراسة عمرانية واقتصادية من خلال وثائق المحكمة الشرعية بدمشق، *مجلة دراسات تاريخية*، جامعة دمشق، العددان 95 و 96، أيلول – كانون أول 2006م، .

10. صلاح علي: 1999م، *دراسات في تاريخ مصر الحديث 1517 – 1882م*، 504.

11. الصواف؛ محمد شريف، 2014، *شام شريف – دور الفقهاء في المجتمع الدمشقي في العهد العثماني*، ط1، دمشق، 960.

12. القاياتي؛ محمد عبد الجواد، 1981، *نفحة البشام في رحلة الشام*، دار الرائد العربي، بيروت، 225.

13. العلاف؛ أحمد، 1976م، *دمشق في مطلع القرن العشرين*، تقديم: علي نعيسة، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، 448.

14. العلبي؛ أكرم، 1989، *خطط دمشق – دراسة تاريخية شاملة على مدى ألف عام من سنة 400 هـ حتى سنة 1400 هـ*، ط1، دار الطباع، دمشق، 604.

15. عوض؛ عبد العزيز محمد، 1969، *الإدارة العثمانية في ولاية سورية 1864 – 1914*، تقديم، أحمد عزت عبد الكريم، دار المعار، مصر، 384.

16. عيسى؛ عبد الرازق، 2005، *التنصير الأمريكي في بلاد الشام 1834 – 1914*، ط1، مكتبة مدبوى، القاهرة، 379.

17. غزال؛ زهير، 2008، *الاقتصاد السياسي لدمشق خلال القرن التاسع عشر – بنى تقليدية في عصر رأس المال*، ترجمة، ملكة أبيض، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة السورية، دمشق، 312.

18. كيال؛ منير، 2004، *دمشق ياسمينة التاريخ – مشاهد من عراقتها وصور من أفانينها ومأثوراتها*، ط1، دار البشائر، دمشق، 271.

19. لطفي؛ فؤاد لطفي، *خانات بلاد الشام*، دار الفارابي، بيروت، ط1، حزيران، 2013.

20. ليلى الصباغ: 1989م، *الجاليات الأوروبية في بلاد الشام في العهد العثماني في القرنين السادس عشر والسابع عشر*، الأجزاء2، ج1، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت، 532.

21. ملّا؛ عز الدين علي، 1998، *حي الأكراد في مدينة دمشق بين عامي 1250 – 1979 – دراسة تاريخية اجتماعية اقتصادية*، ط1، دار آسو، دمشق، 282.

22. مبيضين؛ مهند، 2009، *ثقافة الترفيه والمدينة العربية في الأزمنة الحديثة – دمشق العثمانية*، ط1، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، 269.

23. مبيضين؛ مهند، 2012 – 2013، الناس والمدينة في العصر العثماني: دمشق في القرن الثامن عشر الميلادي، *مجلة إضافات*، عدد20 و21، 185 – 200.

24. نعيسة؛ يوسف، 1988م، *يهود دمشق*، ط1، دار المعرفة، دمشق، 61.

25. نعيسة؛ يوسف جميل، 1986، *مجتمع مدينة دمشق*، ج1، ط1، دار طلاس، دمشق، 365.

الكتب المعربة:

1. ريمون؛ أندريه، 1991م، *المدن العربية الكبرى في العصر العثماني*، ترجمة: لطيف فرج، ط1، دار الفكر، القاهرة، 288.

2. مارينو؛ بريجيت، 2000، *حي الميدان في العصر العثماني*، ترجمة، ماهر الشريف، ط1، دار المدى، 496.

3. وافل؛ آرثر جون " الحاج علي الزنجباري"، 2011م، رحلة الحاج المعاصر إلى مكة عام 1908م، ترجمة: ريم بو زين الدين، تحرير وتعليق، أحمد إيبيش، ط1، دار الكتب الوطنية، أبو ظبي، 201.

4. أوبنهايم؛ ماكس فون، 2008، *من البحر المتوسط إلى الخليج – لبنان وسورية*، ترجمة، محمود كبيبو، مراجعة، ماجد شبر، ط1، شركة دار الوراق للنشر المحدودة، لندن، 391.

5. بيسترون؛ يان، 2009، *رحلة يان بيسترون – ذكرياتي السورية بيروت – تدمر – دمشق سنة 1926*، ترجمة، نهاد نور الدين جرد، دار التكوين، دمشق، 264.

6. أوليفانت؛ لورنس، 2004، *أرض جلعاد رحلات في لبنان وسورية والأردن وفلسطين 1880*، ترجمة وتعريب، أحمد عويدي العبادي، ط1، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، عمان - الأردن، 491.

الرسائل الجامعية:

1. حسن، مازن، *التجارة والطرق التجارية في بلاد الشام والعلاقات مع الغرب الأوروبي 1623 - 1729م*، إشراف: محمود عامر وسمر بهلوان، رسالة ماجستير، جامعة دمشق، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم التاريخ، 2011 - 2012م.

الأبحاث العلمية:

2. رافق، عبد الكريم، "الاقتصاد الدمشقي في مواجهة الاقتصاد الأوروبي في القرن التاسع عشر" *مجلة دراسات تاريخية*، جامعة دمشق، العدد 17 و 18، آب – تشرين الثاني 1984م).

3. رافق؛ عبد الكريم، 1987، البنية الاجتماعية والاقتصادية لمحلة باب المصلى (الميدان) بدمشق 1825 - 1875، *مجلة دراسات تاريخية*، العدد25 - 26، 1 حزيران، 7-62.

4. السوسي؛ لورنس، *قافلة الحج الشامي وآثارها الاقتصادية والاجتماعية في بلاد الشام*، إشراف: يوسف نعيسة، رسالة ماجستير، جامعة دمشق، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم التاريخ، 2006 - 2007م.

5. محمود؛ أمين عبد الله، 1988، الإدارة المصرية في بلاد الشام وبداية ظهور المسألة الفلسطينية 1831 - 1840، *المجلة العربية للعلوم الإنسانية*، جامعة الكويت - مجلس النشر العلمي، مج8، عدد32، 134 - 106.

المصادر الأجنبية:

1. Akkach, samer, Leisure gardens, secular habits: the culture of recreation in Ottoman Damascus, Metu Jfa, 2010L1, (27:1)

2. Hafteh, Georgina, Gardens of Damascus: Landscape and the culture of recreation in the Early Modern Period (Return), A thesis submitted to the University of Adelaide in fulfillment of the requirement for the degree of master of Landscape Architecture, 2012

3. Jessup, Henry, Fifty-Three years in Syria, Fleming H. Revell Company, London and Edinrurcr, 1910

4. the inner life of Syria, Palestine and the holy land, from my private journal by Isabel burton, londres, s. Henry king and co., London, 1885

5. Porter. J. L, five years in Damascus, London, 1855

6. Paton, Andrew, the modern syrians; or, Native society in Damascus, Aleppo, and the mountains of the druses, London, 1844